
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

استقصاء مفهوم «الشَّباب» في الثَّقافات الإفريقيَّة



د. آدم بمبا

أكاديمي وباحث من كوت ديفوار، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا

إنَّ ما يُصطلح عليه في العربيَّة بكلمة «شباب»، أو بالإنجليزيَّة «youth»، أو في غيرهما من اللغات، يمثِّل مصطلحاً نسبيّاً متنازعاً حول مفهومه وحدوده، ذلك أنَّ مفهوم الشَّباب يتعدَّد ويتباين بتعدُّد الثَّقافات واختلافها، وتنوُّع المجالات العلميَّة والفكريَّة؛ من علم نفس، وفلسفة، وتاريخ، واجتماع... كما يتعدَّد بفعل الزَّمن والظُّروف المتقلبة.

وقد حدَّدت هيئة الأمم المتَّحدة مرحلة الشَّباب بما بين: (١٥ - ٢٤) عاماً، وهي عند منظمة الكمنولث: (١٥ - ٢٩)، وفي الاتِّحاد الإفريقيِّ والميثاق الإفريقيِّ للشَّباب: (١٥ - ٣٥)، ولكلِّ دولة بإفريقيا - تقريباً - تحديداتها الخاصَّة للفترة الزَّمنية لسنِّ الشَّباب، كما أنَّ لبعض الهيئات السِّياسيَّة أو المنظمات الأهليَّة المختلفة تحديداتها الخاصَّة بها حتى داخل الدَّولة الواحدة[١].

يُضاف إلى ذلك: أنَّ اعتراف الدَّولة بالحقوق المدنيَّة للفرد؛ يتمُّ في معظم الدُّول بعد بلوغه سِنَّ الحادية والعشرين[٢].

وفي الجدول الآتي بيانٌ بالأعمار المحدَّدة للشَّباب في عدَّة دُوَل إفريقيَّة:

الدَّولة	العمر والمدى الزَّمني
سيراليون، غانا، غينيا، ليبيريا	١٥ - ٣٥ (٢٠ عاماً)
مالي	١٥ - ٤٠ (٢٥ عاماً)
النيجر	١٤ - ٣٠ (٢٦ عاماً)
نيجيريا	١٨ - ٣٥ (١٧ عاماً)

فترة الشَّباب في بعض الدُّول الإفريقيَّة،
المصدر: (Ismail et al. ٢٠٠٦:٢٥)[٣].

يتبيَّن مما سبق، وفي الجدول أعلاه، أنَّ تحديد تعريفٍ دقيقٍ للشَّباب لا يزال يمثِّل تحدِّياً قائماً للدُّول الإفريقيَّة، وذلك في ظلِّ الواقع الاجتماعيِّ الاقتصاديِّ والسِّياسيِّ الذي تتمُّ فيه محاولة وضع وصفٍ للشَّباب، ولعلَّ ذلك ما انتهى بالدُّول الإفريقيَّة إلى اعتماد «المحدِّد الزَّمنيِّ» معياراً لمفهوم الشَّباب، غير أنَّ هذا المحدِّد ليس ثابتاً بين الدُّول، ولا يخفى أنَّ اعتماد «المحدِّد الزَّمني» (السِّن) له تبعاتٌ عميقةٌ في حياة الملايين من الأفراد؛ لعلاقته المباشرة باتِّخاذ القرارات حول مفاهيم وممارساتٍ ومشاريع كثيرة في الدَّولة الحديثة، مثل: حقوق المواطنة، والانتخاب، وحيازة الأملاك، وفترة التَّعليم الإلزامي، والخدمة العسكريَّة، والمسؤوليَّة الجنائيَّة، والتَّوظيف في القطاع العامِّ، والإحالة على التَّقاعد.

والملاحظ في هذا السِّياق: أنَّ الدُّول الإفريقيَّة، وإنْ تبنَّت سِنَّ «الخامسة عشرة» بدايةً لفترة الشَّباب، فإنَّها قد وسَّعت المدى إلى الثَّلاثين أو ما فوقها، ويرجع هذا التَّوسُّع إلى مشكلات البطالة في الدُّول الإفريقيَّة، وطول اعتماد الشَّباب على والديهم ماديّاً[٤]، ويقوِّي هذا التَّفسير تدنِّي المدى المحدَّد لفترة الشَّباب في الدُّول الصِّناعيَّة، ففي أمريكا مثلاً: (١٢ - ٢٤) عاماً، أمَّا في اليابان فإنَّه: (١٥ - ٢٠) عاماً.

وحتَّى نمسك العصا من وسطها في هذه القضيَّة؛ ينبغي أن يُنظر في الاستخدام اللُّغويِّ، فالظَّاهر أنَّ الإشكال الأوَّل في مفهوم «الشَّباب» ناشئٌ عن ضبابيَّة المفردات المستخدمة في هذا المجال الدِّلالي، فهناك مفرداتٌ عدَّة متقاربة في اللغات الأوروبيَّة تُستَخدَمُ في هذا السِّياق، مثل: teenagers, youth, young person, adolewcent,

(١) Odianose, Dominic. Practical Perspectives on Youth, p.3.

(٢) Paul, Ugor L. African Youth Cultures in a Globalize World, 2015.

(٣) Matha, Mutisi. "Interrogating Traditional Youth Theory", p.94.

(٤) Mwenda, Ntarangwi. Children and Youth in Africa.

juvenile...، وينشأ الغموض حين تترادف هذه المفردات في الاستعمال، وتتمُّ ترجمتها إلى اللُّغات الأخرى بالرُّغم من اختلاف المدارك.

فكلمة «adolescent» (مراهق) مثلاً، المأخوذة من الأصل اللاَّتيني (adolescentia)، ومن الفعل (adolesco)، وتعني: النَّماء[1]، يذهب مجموعةٌ من الباحثين، منهم الباحث الأنثروبولوجي آريسْ (Aries)، إلى التَّشكيك في أصالتها، وفي وجود مفهوم «مراهقة» في أوروبا القديمة[2]، وحجَّتهم أنَّ لفظة «مراهق» مُستحدثة، فرضتها ظروف عصر الصِّناعة، والتَّعليم، والحياة الحضريَّة، وغيرها من الظُّروف التي تسبَّبت في توسيع الفجوة بين فترة الطُّفولة والرُّشد[3].

عليه؛ فإنَّ الإشكال يتعمَّق حين يتمُّ إسقاط تلك المصطلحات المتنازع حولها على وقائع وبيئات اجتماعيَّة مختلفة، وذلك ما أشار إليه الباحث «أغْيا» في مَعرِض مناقشته لمفهوم مماثل هو «الطُّفولة»، حيث قال إنَّ «كلَّ محاولة لعولمة مفهوم الطِّفل لا يؤدِّي إلى سوء الفَهْم لطبيعة الطُّفولة فحسب، وإنَّما تُعرِّضُ هذا المفهوم للمحاولات المغرضة والاستخدامات النَّفعيَّة»[4]، أو كما يوضِّحه الباحث «سميث»، فإنَّ محاولة تعريف مرحلة الشَّباب أو الرُّشد تفضي بالضَّرورة إلى رؤية تجزيئيَّة لظاهرةٍ مركَّبة، فالشَّاب أو الرَّاشد هو شخصٌ مركَّبٌ من خصائص بيولوجيَّة، ونفسيَّة، واجتماعيَّة[5].

(١) W. Hyde. The Etymological Encyclopaedia of Technical Words, p.11.

(٢) Deborah, Durham. Youth and the Social, p.116.

(٣) Andrew, Burton, Helen., Generations Past: Youth in East African History, p.237.

(٤) Agya, Boakye-Boaten. "Changes in the concept of Childhood", p.105.

(٥) Fredrick Nafukho. Foundation of Adult Education in Africa, p.6.

هذا، ومن أجل استجلاء مفهوم «الشَّباب» بإفريقيا في سياقه الصَّحيح؛ فسيتمُّ الوقوف عنده في خمسة محاور رئيسة، هي: الاعتبار العمري، ونظام الفئات العمريَّة، والرُّؤى الفلسفيَّة المؤثِّرة في مفهوم الشَّباب، والموروث الشَّعبي الإفريقي، والمؤثِّرات الحديثة في مفهوم «الشَّباب».

١ - مفهوم «الشَّباب» والاعتبار الزَّمني / العُمْري:

يعود أصل التَّصنيف الاجتماعيِّ طبقاً للأعمار إلى عصر سحيق من الاجتماع البشريِّ بإفريقيا، وتفيد الدِّراساتُ الأنثروبولوجيَّة أنَّ هذا النِّظام قد ظهر أوَّلَ ما ظهر بين قدماء المصريِّين، وأنَّ له ارتباطاً عضويّاً بالنِّظام التَّربويِّ التَّعليميِّ في المجتمع القديم، ويُعتقد أنَّ هذا النِّظام الذي ظهر بمصر القديمة قد انتشر منها إلى سائر أرجاء العالم، وأثَّر في النِّظام التَّربويِّ الاجتماعيِّ عند الإغريق، وبلاد الرَّافدَين، وسائر ثقافات الشَّرق الآسيَوي من هنود وصينيِّين.. وغيرهم[6].

عليه؛ لا يخفى أنَّ مفهوم «الصِّغر والكبر» مفهومٌ صارمٌ في معظم ثقافات إفريقيا، وأنَّ له ارتباطاً مباشراً بكثيرٍ من الأنظمة والأعراف الاجتماعيَّة، فهو موجودٌ على سبيل المثال بين الإخوة الأشقاء، وبين الزَّوجات (الضَّرات)، ويتمُّ الاعتماد عليه في استخلاف الوالد أو عميد الأسرة أو الملك بعد وفاته، إنَّ جميع هذه الأنظمة الاجتماعيَّة تقوم على الأولويَّة في الولادة، وحتَّى بين التَّوأمَين، فإنَّ بينهما: أكبر وأصغر، وفي هذه الحالة الخاصَّة يُتَّبع التَّرتيب العكسي، فيعدُّ الأوَّل خروجاً الأصغر[7]، ويفسِّر هذا

(٦) Tradition, Culture and Development in African History, p.60-61.

(٧) قد يُعتقد أنَّ هذا النظام مأخوذ من الكتاب المقدس في قصة نبي الله يعقوب عليه السَّلام (المزامير / إصحاح ١١٦:٩)، والواقع أنَّ هذا النِّظام معمولٌ به في كثيرٍ من المجتمعات المنعزلة نسبيًّا قبل احتكاكها بالمسيحيَّة.

التَّرتيب العكسي بعلاقة الرِّعاية بين الكبير والصَّغير؛ حيث يُعتقد أنَّ الأخير خروجاً قد دفع بأخيه/أخته إلى الحياة، ولم يتركه خلفه.

هذا، وعلى الرُّغم من صرامة حقِّ الأولويَّة في الولادة في الثَّقافات الإفريقيَّة؛ فإنَّ ذلك يكون في حال مقارنة الفرد بغيره حين يستلْزِمُ الموقفُ ذلك، وما عداه، فإنَّ سنَّ الفرد لا اعتبار كبيراً له بوصفه فرداً، وإنَّما يكتسب اعتباره ضمن مجموعةٍ من الأفراد، وذلك ما يُعرف بـ«الفئة العُمْريَّة».

٢ – نظام الفئات العمريَّة:

في المجتمعات الإفريقيَّة؛ يتمُّ تصنيف الأفراد إلى مجموعات عمريَّة متدرِّجة، ويتمُّ انضمام الفرد إلى المجموعة العمريَّة الخاصَّة به، أو انتقاله من فئة عمريَّة إلى أخرى، عبر طقوس تأهيليَّة محدَّدة rites de passage.

هنا يفرِّق الباحثون بين مصطلح «الفئة العمريَّة» (age set)، وبين «المراتب العمريَّة» (age grades)، فالأوَّل: يُشار به إلى الأفراد الذين وُلدوا في فترة متقاربة (١ – ٤ سنوات)، يمكن وضعهُم في مجموعة واحدة[(١)]، بينما الآخر: يُشارُ به إلى المراحل العمريَّة الثَّابتة التي يمرُّ عبرها الفرد في المجتمع، ولها مواصفاتها الجسديَّة والنَّفسيَّة والأخلاقيَّة، وواجباتُها وحقوقها المحدَّدة عند كل مجتمع[(٢)]، ونجد في المجتمعات الإفريقيَّة- عامَّة- ثلاث مراتب عمريَّة: (الطُّفولة، والشَّباب، والكبَر أو الشَّيخوخة).

في هذا السِّياق؛ فإنَّ تقسيم الحياة البشريَّة إلى مراتب عمريَّة نظامٌ أكثر دقَّة وصرامة في المجتمعات الرَّعويَّة منها في المجتمعات الزِّراعيَّة، على سبيل المثال: نجد عند مجموعات ناندي (Nandi)،



المجتمعات الإفريقيَّة القديمة تستقي رؤيتها عن مرحلة «الشَّباب» من خلال فلسفتها الخاصَّة ورؤيتها عن الكون والإنسان والحياة

وكذلك مجموعات تريكي (Tiriki)- في كينيا-: نظاماً سُباعيّاً في هذا المجال؛ أي أنَّ حياة الإنسان مقسَّمة على سبع مراحل، تتكوَّن كلُّ مرحلة منها من خمس عشرة سنة (١٥x٧)، وتعدُّ المرحلة الثالثة في هذا التَّقسيم: مرحلة الشَّباب، ويُطلق على أفرادها: «محاربون صغار»، وإليهم تعود مهمَّة الحفاظ على «الأمن العامِّ» في المجموعة؛ من حمايةٍ للمواشي، ودفاع عن الأراضي.

أمَّا المرحلة الرَّابعة فيُطلق عليها: «محاربون كبار»، ومهمَّتها الأولى نقل خبراتها الحربيَّة والإداريَّة إلى الفئة الثَّالثة، كما تقوم بوظيفة «الوساطة والسِّفارة» بين المجموعة الثَّالثة، ومن فوقها من المجموعات من كبار السِّن. وهذا النِّظام الدَّقيق واردٌ عند مجموعات رعَويَّة أخرى، مثل: الماسائي، وسامبورو[(٣)].

أمَّا مجموعات «بوران»- من الأرومو جنوبيَّ إثيوبيا-: فتُعرَف عندها عشر مراتب «غادا» (gada)، كل مرتبة بثماني سنوات، أولاها: «دبالي» (daballe)، أي: طفولة، وآخرها: (yuba) الشَّيخوخة. ولهذا التَّقسيم تأثيرٌ دقيقٌ في التَّنظيم السِّياسيِّ والاجتماعيِّ عند بوران، يُعرَف في

(١) Toyin, Falola. Facts, Fiction and African Creative, p.130.

(٢) Alan, Bernard. Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology, p.21.

(٣) William, a. Haviland, Cultural Anthropology, p.264.

البحوث الاجتماعيَّة بـ«the Boran version of governance by committees»، وصَفَهُ الباحث برنارد بـ«أكثر النَّماذج تعقيداً في إفريقيا»[1].

وكما سبق؛ فإنَّ المجموعات الزِّراعيَّة أقلُّ تعقيداً في التَّصنيف الاجتماعيِّ، كما الحال عند مجموعات (Karimojong) في الشَّمال الشَّرقيِّ من يوغندا؛ حيث يُصنَّفُ المجتمع إلى فئتَيْن كبيرتَيْن فحسب، هما: الرَّاشدون وغير الرَّاشدين. ومثل ذلك عند «النوير» جنوبي السُّودان. أمَّا مجموعات «أروشا» في شمال تنزانيا؛ فيتمُّ تقسيم الرَّاشدين تقسيماً داخليّاً إلى فئتَين: الصِّغار والكبار.

الخصائص الاجتماعيَّة في هذا النِّظام:

في ظلِّ نظام الفئات العمريَّة هذا؛ يمكن النَّظر بوضوح في مفهوم «الشَّباب» في المجتمعات الإفريقيَّة، وذلك باستعراض بعض الخصائص الاجتماعيَّة في هذا النِّظام، وأثره في تشكيل الرُّؤية الإفريقيَّة عن مرحلة الشَّباب، منها: التَّأهيليَّة، والتَّضامنيَّة، والوظيفيَّة.

أ - التَّأهيليَّة: يعني ذلك أنَّ الانتقال لمرحلة الشَّباب، أو غيرها، تصاحبه طقوسٌ روحيَّةٌ وماديَّة محدَّدة (rites of passage)، وهذا يقوِّي نظر الفرد إلى المرحلة العمريَّة التي انتقل إليها؛ ما دام دخوله إليها قد تمَّ عبر طقوسٍ روحيَّة، وتمَّ إعداده لها نفسيّاً وعمليّاً بمهاراتٍ محدَّدة.

وتحديداً؛ فإنَّ مرحلة «الشَّباب» تبدأ بالختان، ولا يزال ذلك يُعدُّ لازمةً اجتماعيَّةً ضروريَّة في معظم مجتمعات إفريقيا جنوب الصَّحراء؛ حتى يُعترف بالفرد بأنَّه «راشد»، ويُسمح له بممارسة بعض الطُّقوس والوظائف والعادات الاجتماعيَّة. وليس الختان- في حدِّ ذاته- الأمر المهمَّ في هذا المقام، وإنَّما الأهمُّ ما يمرُّ به الفرد من تربيةٍ اجتماعيَّةٍ ثقافيَّةٍ مكثَّفة: في التَّاريخ القوميِّ، والعادات والتَّقاليد، وتربية خُلقيَّة، واختبارات عضليَّة في التَّحمُّل والصَّبر[2].

ب - التَّضامنيَّة: تُعدُّ طقوس التَّأهيل للشَّباب عاملاً لتقوية الوعي بالتَّضامن بين أفراد الفئة العمريَّة الواحدة؛ فتغدو المجموعة جسماً واحداً، تعمل وتتصرَّف باعتبارها كتلة واحدة. وفي المجموعات الأكثر وثنيَّة: يتمُّ استحلاف أفراد المجموعة على النُّصرة فيما بينهم، وعلى الالتزام بأخلاقٍ وأعرافٍ محدَّدة لا يمكن انتهاكها بأيِّ حال، وتقوى الرَّابطة التَّضامنيَّة بينهم حتى تتجاوز الرَّابطة الأسريَّة وعلاقات الدَّم والقرابة[3].

ج - الوظيفيَّة والتَّكامليَّة: يوضِّح التَّقسيم العمري بجلاء مهامَّ كلِّ فئةٍ عمريَّة في المجتمع، ويُسهِّل تسيير نظام الحكم بالمجتمع التَّقليديِّ، ويؤمِّن توزيعاً عادلاً للسُّلطات، وشفافيَّةً عالية النِّسبة في اتِّخاذ القرارات السِّياسيَّة التي تهمُّ المجتمع. وكما أوضحت الباحثة بينيتُ (Bennett، ١٩٩٨): فإنَّ كلَّ فئة عمريَّة ضروريَّة في الهيكلة الاجتماعيَّة؛ لأنَّ مهامها وامتيازاتها فريدة بالنِّسبة للفئات الأخرى، ويتمُّ دعم مهامِّ كلِّ فئةٍ وواجباتها وحقوقها عبر وضع حزمةٍ من القيم والتَّصرُّفات والحدود الخاصَّة بها.

بالإجمال؛ إنَّ الخصائص المذكورة لنظام الفئات العمريَّة، تجعل من مرحلة الشَّباب، ومن الفرد، عنصراً مندمجاً بقوَّة وبعمق في النَّسيج الاجتماعيِّ، ولا يُعرف في ظلِّ هذا النِّظام أيُّ انفصام أو صراعٍ بين «الشَّباب» وبين أيِّ عنصرٍ في المجتمع.

٣ - القيَم والاعتبارات المؤثِّرة في مفهوم «الشَّباب»:

يقوم المجتمع الإفريقيُّ، مثل غيره، على ركائز فلسفيَّة تشكِّلُ رؤيته في الكون والحياة والإنسان، وتؤثِّر بقوَّة في نظرة المجتمع إلى المؤسَّسة

(١) Alan, Bernard. Encyclopedia, Op. Cit., p.22.

(٢) Isaac, Schapera. Picturing a Colonial Past, p.131.

(٣) Olugbenga, Adesida. African Voices, p.10.

الاجتماعيَّــة أو غيرها، وهنا اســتعراضٌ لبعض تلك الرَّكائز الفلسفيَّة التي تؤثِّر في مفهوم الشَّباب، مثل: الجماعيَّــة، والإنتاجيَّة، والمســؤوليَّة، والانضباطيَّة، وكلُّ هذه الرَّكائز تميِّز مفهوم الشَّــباب بإفريقيا عنه في المفهوم الغربيِّ.

أ - الجماعيَّة: يُشــار إلى مبدأ الجماعيَّة في الفلسفة الإفريقيَّــة بـــ«ubuntu»، ويُترجَم إلى (communalism)، ويشــير إلى: أنَّ الفرد تتحدَّد هويَّته بانتمائه إلى مجموعة، ويبدأ هذا الانتماء بعلاقةٍ وثيقةٍ داخل الأسرة الموسَّــعة، فالعشيرة، فالمجتمع الواســع. ومن مظاهر هذا الانتماء: أنَّ اسم المولود في بعض المجتمعات الإفريقيَّة يُحدَّد بناءً على ترتيبه في الأســرة، والفرد في هذا النِّظام هو ملك الجميع، ووجوده متوقِّفٌ على وجود الآخرين وانتمائه إليهم في شبكة علاقات متداخلة في المجتمع.

ويُعبَّــر عن هــذه الفلســفة بالتَّعبير الشَّــهير: «umuntu ngumuntu ngambantu» أي: «أنا موجودٌ؛ لأنَّنا موجودون»[١]، عليه؛ فإنَّ الفرد قبل أن يصل إلى مرحلة «الشَّــباب»؛ فإنَّ مبدأ الجماعيَّة يكون قد ربَّاه على أنَّــه ملْكٌ للجميع، وأنَّ تربيته هي شَــغل الجميع، وفي المثَل عنــد مجموعات بانْيورو: omwana takulia nju emoi : أي: «لا يشُــبُّ الطِّفــل تحت كوخ واحــد»، وعند مجموعــة كيهايا (Kihaya): omwana taba womoi : «ليس الطِّفل مِلْكاً لدارٍ واحدة»[٢].

في ظلِّ هذه الفلســفة؛ فإنَّ مفهوم «الشَّباب» بإفريقيــا التَّقليديَّة يتحــدَّد أيضاً بمــدى انخراط الفــرد في مجموعتــه وفي فئته العمريَّــة؛ من أجل الوفــاء بالمتطلَّبــات الاجتماعيَّة المنوطــة بمَنْ بلغ هذه المرحلة، ويبلغ هذا الانخراط مداه، على ســبيل المثال، في مجتمع «زولو»؛ حيث لا يُحاسَبُ الفردُ إذا قام بانتهاك محظور اجتماعيٍّ، وإنَّما تُحاسَــبُ الفئة العمريَّة التي ينتمي إليها؛ فيتحمَّل الجميع المسؤوليَّة والعقاب.

هــذا، ولا يخفــى أنَّ هــذه الرُّؤية الفلســفيَّة الاجتماعيَّة على عكــس الرُّؤية الغربيَّــة التي تولي الاهتمام بالفرد فرداً: بمصالحه الفرديَّة، وباستقلاله عــن غيره، حتــى إنَّ كثيراً من تعريفات «الشَّــباب» تُصرِّح بهــذه الرُّؤية، وترى أنَّ مرحلة الشَّــباب هي مرحلة الاســتقلال الشَّامل: جسديّاً، وفكريّاً، وعقليّاً، واقتصاديّاً[٣].

ب - الإنتاجيَّــة: لمرحلة الشَّــباب في المفهوم التَّقليــديِّ علاقةٌ واضحة بالإنتــاج، أي أنَّ الفرد لا يخرج مــن الاعتبــار الطُّفوليِّ حتى يُحســن القيام بوظائــف اجتماعيَّــة معيَّنــة، وذلك ضمــن الإطار الاجتماعــيِّ والتَّوزيــع الدَّاخليِّ للمِهَــن والوظائف والحِرَف والأعمال الخاصَّــة بالمجموعة التي ينتمي إليهــا، وبالتَّعبير الحديث: أن يقوم بــأداء «الخدمة العسكريَّة / الاجتماعيَّة».

ويتوسَّــع هذا المعيار إلى مطالبة الفرد بالقيام بأعمــالٍ بطوليَّــة تثبت فُتُوَّتــه وأحقيَّتــه بوصف «شــاب»، على ســبيل المثال: في مجتمع «ماسايْ» الرَّعويِّ: يُطالَب الفرد بمبارزة أســد وقتله، وحينئذ يُعتــرف برجولته[٤]، وعند «الفولانــي» مبارزة قتاليَّة تُعرف برقصــة: (soro/sawro/sharo)[٥]، وفي المجتمعات الزِّراعيَّة تتلخَّص تلك المهام العضليَّة في بناء البيوت، والصَّيد، وفلاحة الأراضي، وحفر الآبار، ومــا إلى ذلك من الخدمات التي تؤمِّن البنية التَّحتيَّة

(١) Derek, Hook. Critical Philosophy, p.76.

(٢) Richard, S. Gilbert. Growing up Absorbed, ch: 14.

(٣) Deon, Filmer. Youth Employment in Sub-Sahran Africa, p.49.

(٤) R. A. Brown. The Tree or the Panzaic Plea, p.401.

(٥) Zartman, I. Traditional cures for Modern Conflicts, p.62.

الاجتماعيَّة[1]، أمَّا الرُّعاة: فتكون أدوار الشَّباب في: رعي المواشي، وحماية المجموعة، وكلَّما تقدَّم الفرد في السِّن؛ فإنَّ المهام تغدو أكثر اجتماعيّاً وسياسيّاً.

ج - المسؤوليَّة: من الفروق بين الرُّؤية الإفريقيَّة عن الشَّباب وبين الرُّؤية الغربيَّة لهذه المرحلة: أنَّ الغرب يراها مرحلة انفصاميَّة بين الماضي والحاضر، حسيّاً ومعنويّاً، أي أنَّها مرحلة صراع، ويُطلقون على ذلك: (puberty-conflict)؛ أي: مرحلة تمرُّد على القِيَم وأعراف المجتمع، ويُعرف بـ«youth culture» (ثقافة الشَّباب)[2]، بالعكس؛ فإنَّ الثَّقافة الإفريقيَّة تنظر إلى هذه المرحلة نظرةً إيجابيَّة بوصفها مرحلة مهمَّات اجتماعيَّة، وتطوُّراً في مسؤوليَّة الفرد نحو المجتمع، وتوسيعاً لأوجُه مشاركته وفاعليَّته في الشَّأن العامِّ، واكتساباً لخبرات جديدة، وتعمُّقاً في الثَّقافة التَّقليديَّة.

من الأمثلة هنا: ما نجده في الثَّقافة الهوْساويَّة؛ حيث إنَّ من محدِّدات الرُّشد عند «هوسا»: أن يكون الفرد مسؤولاً عن غيره، كافلاً لآخرين: من زوج أو إخوة صغار أو أبناء... ويُطلق على مَن تقدَّم في السِّن ولم يتزوَّج لأيِّ سببٍ من الأسباب، وليس هو مسؤولاً عن غيره، قائماً بشؤونهم، يُطلق عليه: (tsoho)، وتعني حرفيّاً: «قديم»، أي أنَّها كلمة لا تحمل ظلالاً اجتماعيَّة، وإنَّما ماديَّة بحتة، يُشار بها إلى السِّن البيولوجيِّ فحسب[3].

د - الانضباطيَّة الخلقيَّة: يُعدُّ التَّصرُّف اللَّبق بحسب الأعراف والقيَم الخلقيَّة في المجتمع معياراً أساسيّاً في تحديد الشَّباب، وبتعبير الباحث ماك ني «McNee»؛ فإنَّ المجتمعات الإفريقيَّة التَّقليديَّة لا تستخدم العمر محدِّداً لتمييز الأطفال من الرَّاشدين.. «بل إنَّ الحالة والوظيفة الاجتماعيَّة هي التي تحدِّدُ السِّن»، وهذه الحالة الاجتماعيَّة يكتسبها الفرد عبر المرور بمتوالية من المهامِّ والواجبات والطُّقوس الاجتماعيَّة، لذلك، فإنَّ الفرد إذا تجاوز الفترة البيولوجيَّة النِّسبيَّة للرُّشد، ولم يخضع لطقوس التَّأهيل، كالختان ومصاحباته، فإنَّه لا يعدُّ راشداً، ولا يعترف له المجتمع بحقوق اجتماعيَّة معيَّنة، ولا يخوِّله القيام بوظائف محدَّدة مما هو من اختصاص الرَّاشدين[4].

هذا، وتحتفظ كلُّ لغة بألفاظ سلبيَّة للإشارة إلى غير المختون، وهي ألفاظٌ وتعبيراتٌ عميقة في الدِّلالة على السِّباب والازدراء بالشَّخص، منها: (bilakoro) عند مادينغ، و (kivisi) عند أكامبا، و (munyolo) عند ليو (Luo)، ويعني ذلك كلُّه أنَّ الشَّخص غير راشد، وأنَّه لم يتلقَّ التَّربية الكافية، والتَّهذيب الصَّحيح.

في هذا السِّياق؛ يشير «الهوسا» إلى الشَّباب في العشرينيَّات والثَّلاثينيَّات بـ«يارا»، ومقابله: «داتيجو، ج. داتيجايْ» (dattijo, pl. dattjai)، لمن جاوزوا الأربعينيَّات، وهو مفهومٌ بيولوجيٌّ واجتماعي في الوقت نفسه، فقد يوصف الفرد الشَّاب بوصف «داتيجو» إذا اتَّصف برجاحة العقل والتَّصرُّف الاجتماعي والأخلاقي اللَّبق، والعكس بالعكس. كما يُطلق «يارا» على ذوي المرتبة الاجتماعيَّة الدُّنيا كالعبيد؛ وإنْ كان كبيراً بيولوجيّاً.

بالمثل: فإنَّ «الفولاني» تربط السِّن برجاحة العقل والرُّشد، فيؤكِّدون أنَّ المسنَّ ليس من عاش طويلاً، ولكنَّه من يَعرف كثيراً. وبتعبير المؤرِّخ الأنثروبولوجيِّ أحمد هامْباتَه باهْ: «فقد يُعدُّ الفرد مسنّاً وهو في العشرين من عُمره، أو حدَثاً وهو في

(١) Olugbenga, African voices, Op. Cit.

(٢) Ulrich, Oberdiek. Anthropological Abstracts, p. 70.

(٣) Murray, Last. Toward a Political History, p.40.

(٤) McNee, L., "The languages of childhood", African Studies Quarterly, 7 (4): 20-32.

ســنّ الثّانية والسّــبعين»[1]، كما يشيرون إلى الشّاب بـــ(sukanaaku)، وهو لفظٌ يحمل ظــلالاً قِيَميَّة إسلاميَّة مكمِّلة لمفهوم الإنسان المثاليّ (Pulaaku) عند «الفولاني».

٤ - الموروث الشَّعبيُّ ومفهوم «الشَّباب»:

يُعدُّ الموروث الشّــعبي بإفريقيــا، أو بغيرها، المصــدر الأوَّليّ لفَهْــم المجتمــع وحضارته، وفي موضوع «الشّــباب» خاصّــةً نجد مادَّةً واســعةً من المفــردات اللُّغويّــة، والحكم والأمثــال، والقصص والأســاطير، والأغاني... التي تعطينا رؤيةً صحيحةً عن هذا المفهوم.

وتكفي الإشارة هنا إلى بعض تلك الجوانب:

أ - حكَــمٌ وأمثــال: هنــاك أمثالٌ كثيــرة تأتي توضيحاً للكثير مما ســبق الإشــارة إليه من مفاهيم حول «الشّباب»، فمن الأمثال في الدّلالة على العلاقة الحميميَّة بين الشَّــباب وكبار السِّــن، مثَلٌ لمجموعة (Builsa): «ba kan kali dai yenga nak peesa a sue yui ya»[2]؛ أي: «ليس بالجلوس يوماً واحداً يتعلَّم الإنسان كيف يملأ جعبةً بالبقول الحلوة، لا بدَّ من التَّعليم المتواصل، ومصاحبة كبار السِّن».

مثَلٌ آخر في حثِّ الشَّــباب على التَّعلّم: «الشّاب الذي لا يســتمع إلى كبار السِّــن يســير طويلاً»[3]؛ أي: لا يصــلُ بســهولة إلى الهدف. قريــبٌ منه قول مجموعة أكانْ: «opayin tiri muna wohuani akuma»[4]؛ أي: «من رأس المســنِّ تؤخذ الفأس»؛ أي أنَّ من يســتنير بالحكماء يحصل على الوســيلة المناسبة للمشكلة، ويقولون أيضاً: «nea apanyin tena ase a oho no, abofra gyina gua so koraa ohu»[5]؛ أي: «إنَّ ما يراه المســنُّ وهو قاعد على الأرض؛ لا يراه الحدَثُ وهو فوق شجرة».

وعــن الإدماج الحقيقيِّ للشَّــباب فــي الحياة تقول مجموعــة بوغنــدا: «miti gyamayuuni, basimba bayegekere, bwe gikula negyezimba»[6]، ومعناه: «البقول الشّــابة تحتاج إلى دعامة، وليســت المسنَّة». ويقولون في الاعتراف بالمقدرة الإنتاجيَّة للشّاب: «keezimbira tekaba kato»[7]، ومعناه: «لم يعــدْ طفلاً الطِّفلُ الذي يبني لنفســه كوخاً». وعند «مادينغ» في ضرورة إشــراك الشَّــباب في اتِّخــاذ القــرارات: «dugu jɛ tɛ tɛmɛ dugu la ko a ka dɔgɔ»؛ أي: «لا يتجاوز الإصباحُ بلدةً لصغرها».

ب - قصص وأســاطير: فــي كثيرٍ من القصص والأســاطير الإفريقيَّة، نجد الصِّغار الذين يتميَّزون بخصائص عقليَّــة أو خُلُقيَّة عاليــة يُعاملون معاملة الرَّاشدين، ويحظون بالحقوق التي يحظى بها الكبار، وربَّما كان ذلك معياراً للتَّفاضُل، خصوصاً في ظروف اســتخلاف الأبناء لوالدهم الملك، حيث يُتجاوز عن حــقِّ الأولويَّة في الولادة، وذلك حــال البطل القوميِّ «صونجاتا» بين المادينغ، و «كاكاما» (الملك الصَّغير، موكاما = ملك) الجد الأسطوريّ لمجموعات بانْيورو (Bunyoro)، وذلك بعد تفوُّقه على إخوته الكبار في اختبارات في الذَّكاء وقوَّة الشَّخصيَّة[8].

من أمثلة الأســاطير أيضاً في دَوْر الشَّــباب في

(١) Hampate B. "Ahmadou Hampate ba Education et Traditions", fondation AFRIKHEPRI, 2013.

(٢) Walter, J. Moon. Using Proverbs to Contextualize Christianity, p.16.

(٣) Dorothy, Proverbs and the African tree of life, p. 97, footnote 21.

(٤) Jane, Apiah. Akan Proberbs As Indigenous Knowledge, p.53.

(٥) Jadie, Mcdonnell. RE-Theorizing the Integral Link between Culture and Development, p.48.

(٦) Khalid, Lubega., Understanding Social in Buganda, 109.

(٧) Ibid., p. 74.

(٨) John, Beattie. Bunyoro: An African Kingdom, p.11-12.

تحقيق الوئام الاجتماعـــيِّ: ما يُعرف عند مجموعة خويْ خـــويْ (KhoiKhoi) بجنوب إفريقيا، بـ«إله المطر»، واســـمه (Tsui'Goab)، ويزعمون أنَّه هو الشَّاب الذي صارع ملك الموت (Gaunab)، ودافع عـــن القرية حين أتى الملكُ فـــي فترة جفافٍ حادَّة لقبض مجموعة من الأرواح(١).

كذلـــك؛ في مجتمع «دينكا» الرَّعويِّ بالسُّـــودان قصَّـــة الفتـــى (Aiwel Longar)، ويُعتقد أنَّه جدُّ مجموعـــات بورْ (Bor) من الدِّينـــكا، وتُضفى عليه قوَّة خارقةٌ، ونجاحه في حماية الشَّـــعب من جفاف هالك(٢).

فالفنون الشَّعبيَّة، بأشكالها المتعدِّدة، أداةٌ دقيقةٌ في الكشـــف عن الرُّؤية الإفريقيَّة لمفهوم «الشَّباب» أو غيره من الظَّواهر الاجتماعيَّة.

هذا، وعلى الرُّغم من أهميَّة كلِّ ما ســـبق ذكرُهُ من ركائز واعتباراتٍ في الثَّقافة الإفريقيَّة التَّقليديَّة؛ فلا سبيل إلى إنكار المؤثِّرات الحديثة المسؤولة عن التَّغير المفهوميِّ لمرحلة «الشَّباب»، ولا بدَّ من الأخذ بتلك الظَّواهر؛ إذا ما أريد الخروج بمفهومٍ حقيقيٍّ عن «الشَّباب» منسجمٍ مع الظَّرف التَّاريخيِّ الرَّاهن.

٥ - المؤثِّرات الحديثة في مفهوم «الشَّباب» بإفريقيا:

هناك ظواهر وعوامل كثيرة قد رشَّحت لإحداث تغيير في مفهوم «الشَّـــباب» الأصيل بإفريقيا، منها: سياســـيَّة، واجتماعيَّة، واقتصاديَّـــة، وثقافيَّة، ولعلَّ الاكتفاء هنـــا بعامل الثَّقافة والاســـتعمار، والتَّعليم الغربيِّ، والعولمة؛ يُدلِّل على هذا التَّأثير.

أ - الاســـتعمار والثَّقافـــة الغربيَّـــة: لقد مثَّل الاســـتعمار منعطفاً حـــاداً في الحيـــاة الإفريقيَّة؛ حيث تمَّ الزَّجُّ بأنظمة الحيـــاة الغربيَّة في المجتمع الإفريقيِّ دون اعتبـــارٍ لملاءمة ذلك لتلك، وقد كان التَّعليـــم الغربيُّ أحد تلك الأنظمـــة المنافرة للحياة الإفريقيَّة، ولهذا التَّنافر آثارٌ واضحةٌ في الشَّـــباب الإفريقـــيِّ المعاصـــر، منها الانفصام عـــن الواقع، والبطالة، وتأخير الزَّواج... ولكلِّ ذلك آثارٌ مباشـــرةٌ في تغيير الرُّؤية عن الشَّباب.

ب - الأديـــان والمعتقـــدات الوافـــدة: للأديان الوافدة بإفريقيا علاقةٌ مباشرةٌ بالتَّغييرات الطَّارئة في مفهوم «الشَّباب»، سواء كانت إيجابيَّة أو سلبيَّة، وقد أدت المســـيحيَّةُ هنا دَوْراً ســـلبيّاً في إحداث الانفصـــام والقطيعة بيـــن الفرد الإفريقـــيِّ وبين معتقداته وقِيَمه وموروثه، وكانت تلك سياسةً مُكمِّلةً للمشـــروع الإمبريالي. وإذا كان الإسلامُ- بعقيدته وقِيَمه- قد ســـاهم بإيجابيَّة في هذا المجال؛ فإنَّنا نجد دعاةً، من العرب والأفارقة أنفسهم، ممَّن تضيق نفوسُهُم بِسَعَة الإسلام، قد ساهموا بسلبيَّةٍ كبيرةٍ في تحطيم القِيَم الإنســـانيَّة النَّبيلة بإفريقيا؛ حيث رمَوا كلَّ مظهرٍ ثقافـــيٍّ بالضَّلال والوثنيَّة دون أن يُجهدوا أنفسَهُم بالنَّظر فيه ودراسته.

ج - الحـــروب الأهليَّـــة والأمـــراض: للحروب الأهليَّة آثارٌ مباشـــرةٌ في التغييـــر الجذريِّ لمفهوم «الشَّباب»، فظاهرة الأطفال المجنَّدين (Children Soldiers) مثـــلاً، قد غيَّـــرت ديموغرافيَّة الحياة ومفهـــوم «الشَّـــباب»، وتفيـــد الإحصـــاءات أنَّ: (٢٠٠,٠٠٠) مـــن أطفال إفريقيا، حتى عام ٢٠١٤م، مجنَّدون، ويمثِّل ذلك نسبة (٥٧,١٤٪) من المجموع العالميِّ (٣٥٠,٠٠٠)(٣)، ونســـبة كبيـــرةٌ من أولئك تحت سنِّ العاشرة(٤).

أمَّـــا الأمـــراض والأوبئة؛ فهي نتيجـــة طبيعيَّة للحـــروب الأهليَّـــة، ويأتـــي على رأســـها «مرض الإيدز» الذي يمثِّـــل مقوِّضاً للكثير من قواعد البناء

---

(١) Patricia Ann, L., African Mythology A to Z, p.48.

(٢) Patricia Ann. Op. Cit., p.5.

(٣) African Policies and Economics Development, p.11.

(٤) Momvana, Children soldiers in Africa, p.17.

الاجتماعـيِّ بإفريقيـا، وأوَّل مظاهر هذا التَّقويض لمرحلة الشَّـباب: هَلْهَلَة الأسرة، وذلك بموت الآباء في فترةٍ مبكِّرةٍ من حيـاة الطِّفل، فلا يصل الطِّفلُ إلى مرحلة الشَّـباب الافتراضيَّة وصولاً طبيعيّاً، بل قد يكون الطِّفل، وهو فـي مرحلةٍ مبكِّرةٍ من عمره، مسـؤولاً عن إخوته الصِّغار، دون أدنى تأهيلٍ لهذه المسـؤوليَّة، وحينئذٍ لا وجه للحديـث عن مرحلة شباب حقيقيَّة لمثل أولئك الذين يعيشون في مجتمعٍ مُهَلْهَل. هذا بالإضافة إلى أنَّ الشَّـباب أنفسهم هم أكثر الفئات العمريَّة موتاً بمرض الإيدز.

د – العولمة: يبرز تأثير العولمة في جميع مناحي الحياة الإفريقيَّة؛ في كـون إفريقيا الطَّرف الهدف في العولمة: في التِّجارة، والثَّقافة.. وغيرهما، ومن تأثيرات هذا النِّظـام في إحداث التَّغيير في مفهوم «الشَّـباب»: ما نشـهده من إملاءات المؤسَّسـات الإمبرياليَّـة على الدُّول، مثل صندوق النَّقد الدُّولي، ومنظَّمـة يونيسـف، وإجبارهـا الحكومـات على سياسـات اقتصاديَّة واجتماعيَّة تؤثِّر مباشرةً وسلباً على حياة الملايين من الأفارقة، وتؤدِّي إلى مسـخ المفهوم الحقيقيِّ لمرحلة «الشَّباب».

خاتمة:

لقد كانت الفقرات السَّابقة محاولةً لاستكشاف مفهوم «الشـباب» بإفريقيا التقليدية، وما طرأ على هذا المفهوم مـن تطوُّرٍ وتغيير، فـي هذا الإطار: وُجِد أنَّ اعتمـاد «المعيار الزَّمني» وحدَهُ في تحديد «الشباب»، كما المعمول به في الدُّول الإفريقيَّة وفي العالَم، يفضي إلى إشـكالات كثيرة، كما أنَّ اعتماد المعاييـر الأجنبيَّة في هذا التَّحديد يوسِّـع نطاق الإشكال، فتحديد «الشَّـاب» بمن بلغ الثامنة عشرة من العمر، كما الحال في معظـم البلاد الإفريقيَّة، معيارٌ مُسْـتَوْرَدٌ مـن القوانين الغربيَّـة، والحال أنَّ معظم المجتمعـات الإفريقيَّة التَّقليديَّة تجعل البلوغ (puberty) فاصلاً بين الطُّفولة والرُّشد، والرُّشد هنا له درجاتٌ محـدَّدة واضحة بخلاف الحال في القوانين الغربيَّة التي تعامل– تقريباً– مَن بلغ الثَّامنة عشَرة معاملة مَن في الثَّمانين من العمر: في الحقوق والواجبات المدنيَّة.

وكمـا ألمح إليه الباحث مزروعـي؛ فإنَّ اللُّغات الإفريقيَّة «تضع فاصلاً بين الرَّاشدين الشَّباب، وبين الشَّـباب ذوي القدرات الحربيَّة في حماية المواشي والأراضي، وبين مَنْ فوق أولئك من كبار السِّن»[(١)].

أيضاً؛ وُجِـد أنَّ المجتمعات الإفريقيَّة القديمة تسـتقي رؤيتها عـن مرحلة «الشَّـباب» من خلال فلسـفتها الخاصَّـة ورؤيتها عن الكون والإنسـان والحياة، ومفهوم «الشَّـباب» في ظلِّ هذه الفلسـفة شموليٌّ موسَّـع: جسمي، نفسيّ، اجتماعي، ثقافي.. إلخ.

هذا، ولا شـكَّ بـأنَّ نظرةً كليَّـةً جامعةً بين الأصيـل والحديث فـي مفهوم «الشَّـباب»؛ هي المخرج الأسلَمُ من الإشكالات التي تجلبها النَّظرة الأحاديَّة المستَوْرَدة في هذا السِّياق، وقد تمَّ تعداد بعـض المؤثِّرات الحديثة التي لا بدَّ من الاعتراف بهـا من أجل وضع مفهوم الشَّـباب في سـياقه الصَّحيح، ولا يخفـى أنَّ التَّحديد الدَّقيق لمفهوم «الشَّـباب» له تأثيرٌ مباشرٌ في حسن إدارة الدَّولة وتسـيير شـؤونها واتِّخاذ قراراتها؛ لأنَّ تصنيف المجتمع إلـى فئاتٍ دقيقةٍ خطـوةٌ ضروريَّة لكلِّ برنامج إنمائيٍّ بالدَّولة الإفريقيَّة الحديثة[(٢)]، وهذا التَّحديـد الدَّقيق لا يتمُّ إلاَّ بالاعتراف بالسِّـياق التَّاريخـيِّ الذي نعيـش فيه؛ بجميـع مظاهره السِّياسيَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة[(٣)] ■

---

(١) Mazrui, Ali al-Amin, The Warrior Tradition in Modern Africa, p.75.

(٢) Deborah, Durham. Youth and the Social, p.114.

(٣) Paul, Ugor L., African Youth Cultures, Op. Cit.

Towards an Exploration of the Concept of Youth in Africa



Adama Bamba, Ph.D.

This paper attempts to explore the concept of youth in various African cultures: what are their perspectives on youth? What are the appropriate cultural sets in which each society places youth? In order to answer these questions, this paper adopts a socio-cultural method to explore the African views on and social concepts of youth, with five themes set as the major elements in which the concept of youth will be explored, namely: (a) age recording, (b) the age-set system, (c) the philosophical views, (d) the popular notion about youth, and (e) the modern factors that affect the views towards Youth concept. The study finds first that African societies had some of the oldest age-based classifications of population, first recorded in ancient Egypt, then spread to other cultures worldwide. Second, the age-set system, where individuals of a certain age are assigned specific social tasks, was a common practice in African societies. Here, youth represents the center of classification, and many cultural practices known as "rites of passage" go in line with this concept. Third, regarding the norms affecting the concept of youth in Africa, the African worldview known as *Ubuntu* plays a central role in forming the concept of youth. Youth is mostly seen as a set of social behavior, responsibilities and conformity to the social norms. Fourth, every African society has distinctive words, maxims and proverbs that portray best the concept of youth. Few examples are mentioned to elucidate this fact. Fifth, many factors have impacted the concept of youth in Africa in the modern era, such as colonialism, European cultural invasion and globalization. These factors have positive or negative impacts on the changing concept of youth. Finally, this paper argues that the youth concept in Africa should not be based soley on chronological and legal criteria, and that attempts should be made to reconcile traditional and modern views on the youth concept ■